مركز أوال للدراسات والتوثيق
AWAL CENTRE FOR STUDIES AND DOCUMENTATION

أرشيفو
ARCHIVO

العدد 11 - آذار/ مارس 2019

شارع الجمّيزة
بين ليل وضحاه

تغريد الزناتي

يُعرف شارع الجمّيزة بأنه أقدم شوارع بيروت، وأكثرها جمالًا من ناحية العمران، وأكثرها سَمَرًا من ناحية التسلية والترفيه. ويقال إنَّ منطقة الجميزة شهدت حقبة الصليبيّين والمماليك، لكنها لم تكن منطقة سكنيّة بامتياز حينها، بل كانت في أوَّل تكوينها منطقة هادئة ومدخلًا للعاصمة.

عالم الشبابيك الخشبية

يقع شارع الجمّيزة عند الكتف الأيمن لوسط المدينة، وتحدّه من الطرف الآخر منطقة مار مخايل. تكثر في الجميزة المطاعم والملاهي الليلة، كما تكثر البيوت القديمة والقناطر العالية وظلال الأشجار الَّتي تنعكس على الأرض من كلِّ صوب.

تضجّ الجمّيزة بالشّبابيك الخشبيَّة. تلحظها عند أوَّل مدخل المنطقة من الجهة اليمنى لوسط بيروت، قرب مقهى "Paul". شبابيك معلَّقة بين جدران حجرية سميكة وأسوار شرفات حديدية، وأخرى بألوان قوس القزح.

شوارع الجميزة ضيّقة، تكاد لا تتَّسع لسيارتين. نشأة الحيّ قديمة، حيث لم يكن للتنظيم العمراني حيّز مهمّ، ولم تكن السيارات بهذه الكثافة. جلّ ما كان يمرّ من هنا هو عربة أو سيارة بين الحين والآخر. قد تمرّ بشارع وُجد بالصّدفة، وربما لم يكن أهله الأوَّلون يتوقّعون إمكانيّة استمراره وتوسعه.

عند منتصف الشّارع، درج طويل، يُعرف بدرج مار مخايل. عند أوَّله غرافيتي كبير لفيروز. تتمايل المنازل والمقاهي صعودًا عن اليمين واليسار، مثل زقاق في ساحة قرية. تنتشر المنازل من كلِّ صوب بهيئتها العجوز المتشابهة وألوانها الباهتة. درج فيروز معلَمٌ تجب زيارته في المنطقة.

التسمية.. تيمنًا بالشّجرة

يسرد التاريخ الشفهي الشعبي قصَّتين يمكن أن تفسّران سرّ التسمية. يُقال إن

الشّارع كان يُسمى شارع "البيارة" (من بئر، بسبب وفرة الموارد المائية)، وكان يضمّ شجرة جميزة ضخمة، قطعها حاكمٌ آنذاك لسدّ حاجات المنطقة من الخشب. من هنا كانت التسمية، تقول الرواية الأولى.

أما القصّة الثانية، والتي هي أقرب إلى قلب سكّان المنطقة، فتقول إن الحيّ كان يحتضن شجرة جميزة كبيرة، اعتاد مسنّو المنطقة التفيؤ في ظلّها وتمضية ساعات طويلة في لعب "ورق الشدة" ولعبة "الطاولة" الشعبيتين بجوارها، لكنها قُطعت لافتتاح مقهى عُرف بمقهى الجميزة.. فكانت التّسمية.

إذًا، تتّفق القصّتان على وجود شجرة جمّيزة ضخمة سُمِّيت المنطقة تيمّنًا بها، والباقي يبقى تفصيلًا.

في النشأة والتوسّع

توسّعت المنطقة شيئًا فشيئًا في منتصف القرن السابع عشر. حينها، أدّت الجميزة دورًا بارزًا في ربط قلب بيروت بمدينتي صيدا (جنوب لبنان) وطرابلس (شماله)، كما ربطت بيروت بسوريا عبر الشام. هذا الوصل أدى إلى ازدهار التجارة وحركة البيع والشراء ورفع نسبة الاستهلاك، فاستقرّ الكثير من الباعة قرب مصدر رزقهم، وكبرت العائلات، فازدادت نسبة السكّان، ما انعكس على شكل العمارات التي تحوّلت إلى مبانٍ من عدّة طبقات. عند السير في شارع الجميزة اليوم، يمكن ملاحظة أسلوب بناء معظم العمارات القديمة التي تتألّف من ثلاث إلى أربع طبقات، لتستوعب تزايد عدد السّكان الذي طرأ على الديموغرافيا في القرنين السابقين.

إنَّ نشاط الحركة التجارية في المنطقة، والأثر الاقتصادي الإيجابيّ الّذي خلّفته علاقتها مع الجوار اللبناني والسّوري، دفع سكان منطقة الجبل اللبناني إلى النزوح والعمل في التجارة والسير باتجاه الإنماء الاقتصادي، فاكتظت الجميزة شيئًا فشيئًا،

وزادت أعداد المحال التجارية، ما أدى إلى توسّع المنطقة نحو الأشرفية (شرق المنطقة)، لتصبح بقعة تجاريّة ممتازة.

صباح الجميزة.. وليلها

صباح الجميزة هادئ وراقٍ. يمكنك أن تضيف إليه رائحة القهوة، فيُصوِّر لك عالمًا من الصباحات المثالية. في ء الأشجار عند أطراف الطريق يزيد من الجمالية جمالًا، والنسمات التي تبعثها تترك في روحك بسمة، وكأنَّ الحياة كلّها على ما يُرام.

تصلك من "قهوة إيمان" في شارع غورو (شارع الجميزة الرئيسي) وصلات غنائية لبنانية قديمة بألحانها البسيطة الهادئة. حركة المارة هنا خفيفة خلال النهار. من السكّان من هو منهمك بأشغاله، وبينهم شباب يفضّلون ليل المنطقة الصاخب.

ليل الجميزة لا يشبه هذا الصّباح بتاتًا، من يزُر المنطقة يعلم ذلك جيدًا. أما بالنّسبة إلى من لم يتمكَّن بعد من زيارتها، فسنحاول رسم الصّورة له: ليل الجميزة نقيض حال النهار تمامًا. الليل هنا صاخب ومكتظّ. السيارات تكاد لا تستطيع المرور، والمشاة يفترشون الأرض. للمقاهي شرفات تمتد على طول الرصيف بكراسيها وطاولاتها ومختلف أشكال الإنارة فيها. تصلك الموسيقى من كلِّ ناحية وصوب، منها ما هو شرقي ومنها ما هو غربي، منها كلاسيكيّ وآخر "مجنون". يرضي هذا الشارع كلّ أذواق الساهرين.

تُعتبر منطقة الجميزة إحدى أهم وجهات الفئة الشبابية للسهر والرقص والغناء والاستمتاع بالليالي البيروتية، صيفًا وشتاء. تفتح المطاعم أبوابها مساءً بعد إغلاق شبه تام في فترات الصباح، لتلوّن عتم الليل بأجواء من الفرح والحب.

يكثر وجود الأجانب، الأوروبيون منهم على وجه التحديد، في المنطقة. يعود ذلك إلى انفتاح المنطقة على العالم الغربي، ليس فقط في الشكل، بل أيضًا في الثقافة،

وفي شخصيَّة زائريها، وطبيعة المحال التجارية الموجودة، من معارض وغاليريهات ومطاعم واستوديوهات. كثيرة هي الأماكن التي تعتمد على الفنّ هنا، من رسم، وصناعة مجوهرات، وتصميم ملابس، وصالات عرض للمنحوتات واللوحات، ومراكز فنّ التصوير.

"صخب" الحياة والعمل

افتتح إيلي محلًا تجاريًا لصناعة المجوهرات والإكسسوارات اليدوية بأشكالها كافة: أساور، خواتم، سلاسل مفاتيح... المبنى الَّذي انتقل إليه يفوق عمره مئة عام. قناطره ضخمة وسقفه عالٍ لا يمكن لمسه، تتدلى منه ثرية صفراء دافئة، لا تنتقص من جماليته شيئًا.

يتحدّث عن فترة افتتاحه المحل. عندها، شهد إقبالًا كبيرًا من السّياح وسكان المنطقة وزائريها. فرع الجميزة هو الثاني بعد فرع جبيل. يعبّر إيلي عن خيبة أمل شعر بها بعد تراجع الأعمال في المنطقة بشكل ملحوظ خلال فترة قصيرة، لأسباب ترتبط بأمن البلاد واستقرارها، إضافة إلى عدد السّياح المتوافدين إليها وعجلة الاقتصاد التي تدور ببطء وحذر.

لإيلي خبرة في حركة السوق، لكونه اعتاد متابعة هذا النشاط منذ افتتاح محلّه الأول في منطقة جبيل. يقول إنَّ تراجع الحركة يقترن أيضًا بإقفال العديد من الملاهي الليلية الكبيرة في السنوات الخمس الأخيرة، بعد إشكال وقع بين أصحاب الشّقق السكنيّة وأصحاب هذه المحال التي تصدر صخبًا كبيرًا خلال أوقات متأخّرة من الليل، ما أدّى إلى انتقال هذه المحال إلى منطقة مار مخايل (شمال الجميزة). كلّها أمور كسرت من صخب المنطقة، لتقوم مكانها مطاعمٌ ومقاهٍ "عادية".

يسير سليمان بعصاه على جنب الرصيف نحو دكان صديقه القديم، على بعد مفرقين من منزله، ببطء واستمتاع. يخبرنا أنه لم يعتزل حبّ المنطقة يومًا، لا

بصخبها ولا بهدوئها، وأنَّ الجميزة تشبه الحياة، هادئة حينًا و"خوتة" أحيانًا. لا يمانع الرجل السبعيني أجواء السّهر التي تعكس الفرح والسعادة والاستمتاع بعمر الشباب. "ما فينا نرقص بس نصير عالعكيزة"، يضيف ممازحًا.

يحبّ سليمان منطقة سكنه حبًّا جمًّا. لا يستبدل بها أيّ مكان آخر، ويعتبر أنها أرقى المناطق بشيبها وشبابها، بعمرانها ونشاطها. يكفي أن تقف على شرفة منزله صباحًا لتفرح بوجودك.

في وداع الجميزة

ترتفع العديد من المباني الضَّخمة حاليًا في المنطقة. ورغم أنَّ الحكومة اللبنانية تبنّت مسؤوليّة الحفاظ على المباني الأثرية في لبنان عمومًا، وفي الجميزة خصوصًا، لوفرتها، فلا بدّ ليد المستثمرين من أن تصل إلى العديد من البقع فيها، لتقيم أجسامًا ثقيلة من الباطون، تفتتح من خلالها مشاريعها الخاصَّة. الجميزة مميزة، لكنَّ يد التغيير تطال كلّ شيء.

قُطعت شجرة الجميزة هنا، لكنَّ الفيء لم ينقطع عن أزقّتها. الشجر هنا كثير، والفيء يغلب على أرصفة المنطقة ومحالها، لتبقى شمسًا وفيئًا، هدوءًا وجنونًا، وحبًا لكلِّ ما هو عتيق، وحماسةً لكلِّ ما يحمله المستقبل. شتّان ما بين ليل الجميزة وضحاه. لا يعرف سرّها إلا من آنسها في المشهدين!